

أثر الإسلام والعروبة على العادات الاجتماعية لدى الأتراك في بلاد ما وراء النهر خلال العصور الوسطى

د. عبد الله علي نوح

ليبيا

تعتبر العادات الاجتماعية بطقوسها المتوارثة المختلفة، من ضمن أوجه التفاعل والتلاقح الحضاري بين الأمم والشعوب في أغلب مراحل الاحتكاك الحضاري في تاريخ الإنسانية، متأثرة بعدد غير قليل من العوامل والأسباب، منها ما هو طبيعي يتعلق بتكوين الإنسان وفطرته من خلال حب الاطلاع على عادات الآخرين، ومنها ما هو سياسي متمثل في نظرية ابن خلدون المشهورة حول اقتداء المغلوب بالغالب في أغلب أنماط حياته^(١)، ومنها ما هو حضاري أو مدني يختص بأخذ أمم بأسباب مدنية أمم أخرى وتطورها بغية اللحاق بها في طور تمدنها.

وقد ساعد الإسلام العرب بشكل واسع على الاحتكاك بحضارات كثيرة لم يكن لهم أن يطلعوا عليها بشكل قريب لولا حركة الفتوحات الإسلامية التي فتحت أبوابا متعددة للتلاقح والتأثر المتبادل للعرب مع شعوب وأمم وأعراق كثيرة.

والأتراك من ضمن تلك الأمم ذات الأثر الواضح في مسيرة دول الإسلام في مناحي مختلفة سياسيا واجتماعيا، فقد ساعد الأتراك بكثرة أعدادهم وتفرعات عناصرهم وقبائلهم، على إحداث تأثير بين في الأحوال والنظم الإسلامية خاصة في المجال السياسي منذ غلبة الترك على ناصية الحكم الإسلامية، منذ استكثارهم في عهد الخليفة المعتصم، وما تلا ذلك من فترات استحكمت فيها قبضة الترك على مفاصل الحياة السياسية للدولة الإسلامية. وفي المقابل فإن الإسلام كدين حضاري متطور ومتمدن ومؤثر، والعرب كأمة حاملة لمشعل الدين، وأول أمه حازت شرف نشره بين الأمم مدعومة بالتنزيل العظيم الذي دعم مركز العرب كقوم نزل القرآن بلسانهم، قد أثرا معا في طبائع وأخلاق ومناهج الأتراك وسلوكهم وعاداتهم، وبالتالي فلا استقامة في الدين بدون لسان العرب، ولا تصح شعائر الدين إلا بإتقان لغة العرب، ثم التحلي بخلق الإسلام والقرآن والتأسي بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في عاداته ومسلكه وخلقه.

* مناقب الأتراك في بلاد ما وراء النهر:

لا تخلو عادات أي أمة من عدد غير قليل من المناقب والصفات الحميدة التي لا يشترط تأثرها بدين أو طقس تعبدية، بقدر تأصلها الاجتماعي المتوارث عقب الأجيال من باب مكارم الأخلاق واستقامة المسلك الاجتماعي.

(١) - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د-ت ص ١٤٧.

والواقع أن طوائف الترك ببلاذ ما وراء النهر بتركيباتها العشائرية المتعددة وقبائلها وأطيافها الكثيرة ^(١) حازت قدرا من تلك العادات الحسنة والتي يبرز في مقدمتها الكرم الظاهر المتمثل في إقراء الضيفان والتنافس في إكرام الطارقين وأبناء السبيل، وهذه الظاهرة في واقع الحال استوقفت وشدت انتباه وملاحظة أغلب البلدانين المسلمين الذين تعرضوا لمسالك بلاد ما وراء النهر، فابن حوقل يصف سكان بلاد ما وراء النهر بقوله "إن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل داره، ولا يجد المضيف من طارق يطرقه كراهية، بل يستفرغ جهده في إقامة أوده من غير معرفة تقدمت، ولا توقع مكافأة، بل اعتقادا للسماحة في أموالهم" ^(٢) وهذا معناه أن الإقراء سجية منتشرة وواضحة لديهم، بل وتصل لدرجة أن الواحد منهم يبالي في استفرغ جهده لإظهار صفة الكرم لضيفانه ما وسعه ذلك طلبا للسماحة وسعيا وراء الكرم لذاته دون انتظار جزاء أو مكافأة. وعبارة ابن حوقل هذه منتحلة بنصها وفصها عن الاصطخري صاحب كتاب (مسالك الممالك) والذي استوقفته هذه الصفة الجيدة لدى الأتراك في بلاد ما وراء النهر فحرص على تقييدها والثناء عليها ^(٣) بل يزيد بأن يجعل همة المقتدرين منهم منصرفة إلى بناء منازل الأضياف وإعدادها بما يصلح لتكون دورا ينزلها المسافرون والعاثرون حيث يقول "وحسبك أنك لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف، فتراه عامة دهره متأنقا في إعداد ما يصلح لمن يطرقه" ^(٤).

وقد وصف أحد المؤرخين الإيرانيين المعاصرين سكان بلاد ما وراء النهر من الأتراك بأنهم من الألفة والتواصل في إحيائهم ودروبهم، وكأنهم أفراد أسرة واحدة تقطن بيتا واحدا، وذلك بسبب إكرام بعضهم لبعض، وتواصلهم البين وانتشار صفة الكرم بينهم ^(٥).

والواقع أن هذا كان ديدن سكان الحي الواحد أو القرية الواحدة الذين كانت تربطهم أواصر القرى العشائرية والعصبية، إذ أن حالة الصراع والتناحر على موارد العيش كانت صفة كذلك في علاقة القبائل الترك التي تقطن تلك السهوب الواسعة الواقعة خارج المدن بما وراء النهر، حيث كانت الإغارة والحروب من أظهر وجوه العلاقة بين قبائل الأتراك قبل الإسلام ^(٦)، حتى أصبحت أعمال الحرب والظعن دربة وحرفة ومسلكا ظاهرا ^(٧).

(١) - أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٣٨٥.

(٢) - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخري، مسالك الممالك، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٨٩.

(٣) - نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٤) - نادر كريميان سردشتي، اسروشنه تاريخ جغرافياي تاريخي وكونولوجي، سازمان ميراث فرهنگي، تهران، ١٣٨١ش، ص ٤٠.

(٥) - كان الأتراك قبل إسلامهم قبائل تتصف بالتخاشن والصراع والإغارة، فهم بحسب وصف القزويني (صنعتهم الحرب والظعن والضرب): زكريا بن

محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د-ت، ص ١١٨.

وهم اصحاب بأس وجرأة وفق وصف الحموي حيث قال "تفضلهم على سائر الأجناس في البأس والجرأة وحسن الطاعة": شهاب الدين أبو عبد الله

محمد بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الأول، ص ١٩٥.

(٦) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسالة في مناقب الترك ضمن مجموعة رسائل الجاحظ، الطبعة الأولى، مطبعة المغربي، القاهرة، د-ت، ص ١٢.

(٧) - أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٩،

ص ٥١٨. كذلك أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، القص والأُمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، مطبعة السعادة، القاهرة،

١٣٥٠هـ، ص ٣٣.

وذلك مما دعا البعض إلى وصم الترك في تلك الأصقاع بغلظ القلوب وجفاء الطباع، فالإدريسي يصفهم بقوله "لهم قلوب جافية وطباع غليظة غشيمة" ^(١) وهذا ما حدا بالمؤرخ المعروف (فاسيلي بارتولد) إلى جعل هذه الصفات المسلكية من ضمن الأسباب التي حالت دون وجود نمط حضاري واضح لدى الأتراك مقارنة بالأمم القريبة منهم كالفرس الساسانيين والصين ^(٢).

وصفة الجلد وتحمل قساوة الحياة نتيجة لحالة البداوة التي عاشها قبائل الأتراك قبل الإسلام، لم تكن حكراً على ذكراهم فقط، بل أن نساءهم كذلك كن ذوات جلد واضح وعزم ظاهر، فوفق ألفاظ الإدريسي فإن "نساءهم أجلد من رجالهم، وأكثرهم تصرفاً فيما يحتاجون إليه، لحدة أنفسهم وعزة أطباعهم" ^(٣).

ورغم ما في العبارة من بعض المبالغة إلا أن واقع حال حياة عشائر الأتراك كان يستلزم عمل النساء وجلدهن لقساوة الحياة ذاتها والقائمة على التنقل والترحال الدائم، فالترك إجمالاً "طواعن رحالة متنقلون من مكان إلى مكان، يطلبون الخصب حيث عرفوا به، وهم أصحاب إبل وأغنام وأبقار كثيرة، وبيوتهم شعر مثل بيوت العرب، لا يقيمون في مكان، بل هم مع الدهر متنقلون متحولون من موضع إلى موضع آخر" ^(٤).

ورغم حالة القرار التي حدثت لبعض فروع عشائر وقبائل الأتراك، وما تبعها من ظهور المدن والقرى إلا عدداً غير قليل من قبائل الترك ظلت في أطراف أقاليم ما وراء النهر الشرقية على حياة البداوة والتنقل، وعندما طرق الرحالة العربي (أبو دلف الخزرجي) مضارب تلك الأقوام خلال القرن الرابع الهجري سجل بعضاً من أحوال الناس الاجتماعية، فذكر بعض مناقبهم في محيط قبائلهم، حيث قيد مثلاً أن قبيلة تركية على حدود التبت مما يلي بلاد ما وراء النهر تسمى قبيلة (الخطلخ) ^(٥) يوصف أفرادها بأنهم قوم لهم رأي وحكمة وتدبير، ولهم عرف متوارث يقوم على القصاص والغرم في الجراحات ^(٦)، ومثلهم قبيلة تسمى (الختيان) ^(٧) يتحاكمون بأحكام عقلية مقبولة، ولكل مجموعة منهم شيخ يتصف بالرجاحة والرأي، يحكمون إليه ويقبلون رأيه وأحكامه ^(٨).

ورغم ذلك فقد بقيت الحروب بما فيها من مفسد ومصاعب من أوضح مزايا الترك على وجه التعميم، فقد ذكر ابن صاعد في حديثه عن صفات الأمم من الأتراك ما نصه "وفضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا خصلتها، معانة الحروب ومعالجة آلتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثقافة، وأبصرهم بالطعن والضرب والرماية" ^(٩).

(١) - فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٧٤، ص ٤٥٢.

(٢) - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٢٣.

(٣) - بارتولد، تركستان، ص ٣٣٧.

(٤) - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥١٧، ٥١٨.

(٥) - الخطلخ: قوم من الترك أصحاب شوكة وإغارة لهم العديد من مثالب الأخلاق في الزواج والعلاقات الاجتماعية: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٥.

(٦) - أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي، الرسالة الأولى، تحقيق مريز سعيدي مريز، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٥م، ص ٥٠.

(٧) - الختيان: جنس من الترك أصحاب رأي وعقل، لهم بعض المناقب التي تفرقهم عن صاقبهم من قبائل الترك: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٣.

(٨) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٥١.

(٩) - أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، ص ٨.

ومن سجاياهم في الحروب فوق الشجاعة والجلد أنهم كانوا يتميزون بالأنفة ورفض الذل في الأسر، وكره الاسترقاق خاصة لنسائهم وذريتهم، فالذل كل الذل عندهم أن تقع النساء في أيدي العدو أثناء الحرب، فقد ذكر بارتولد في كتابه (تاريخ الترك) أن أقسى وأشنع أنواع الذل عند قبائل الأتراك هو وقوع امرأة في أسر العدو^(١).

وفي جانب آخر تميز الترك بروح واضحة من التآزر والتآلف بين أفراد العشيرة الواحدة، وهذا ما حدا بالجاحظ إلى اعتبار ذلك مزية حسنة فيهم، رغم أن بما ما يومئ إلى حالة من التعصب، فقد ذكر أن ذلك التآلف والتآزر قاد إلى الإصهار في ذوي العشيرة والقرابة، وذلك أدعى إلى التسالم والتآزر في القرابات وفي بني الأعمام والعشائر^(٢).

وأدت هذه الصورة من العصبية العشائرية إلى أن تأصل لدى الترك شعور ببعض التمييز عن غيرهم، بل وأصبح لديهم ميل إلى الافتراق عما عداهم من الأمم، ولعل في إطلاق الأتراك كلمة (تت) أو (تات) على العناصر غير التركية القاطنة في بلاد ما وراء النهر ما يدل على ذلك، وهذا المصطلح يقابل كلمة أعجمي في اللغة العربية^(٣).

ويقرر الكاشغري في معجمه (ديوان لغات الترك) أن كلمة (تت) كانت تطلق عند عامة الأتراك على الفرس، وفيها بعض الازدراء والمعنى المراد من المصطلح على التعميم هو الشخص الذي لا ينتسب إلى العرق التركي^(٤). هذا وقد تأصلت هذه العصبية نحو عنصر (تات)، ثم أصبح المصطلح يطلق في طور لاحق على أصحاب اللسان الفارسي الممتزج باللهجة التركية والتي يكثر فيها إبدال الحروف عند النطق^(٥).

كما أطلق الأتراك في بلاد ما وراء النهر كلمة (سارت) على بعض العناصر الإيرانية التي وفدت ثم استوطنت مدن وقرى ما وراء النهر، وإن كانت الكلمة تومئ إلى معنى (التاجر)^(٦)، إلا أن تتبع أصل الكلمة واشتقاقها ثم إطلاقها على طائفة من الإيرانيين يعطي المعنى المراد عند الأتراك من إطلاقها، فالكلمة في الأصل اسم لقوم من قدماء الأتراك كانوا يلبسون جلود الحيوانات المصبوغة باللون الأصفر حتى غدا شكلهم يماثل أو يقارب الثعالب وبنات آوى، ومن ثم اتخذ اللفظ معناه الذي يفيد مفهوم الماروغ والمكر وسيء الخلق^(٧)، ثم أصبحت كلمة (سارت) تعني في لغة تركستان تركستان مفهومها محصورا بوصف بعض العناصر الفارسية التي عاشت حول نهر سيحون، وتتميز ببشرتها الضاربة إلى الاصفرار^(٨)، وقد أشار المؤرخ الإيراني (رحيم قبادياني) في بحثه عن أصول

(١) - فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣٠.

(٢) - الجاحظ رسالة في مناقب الترك، ص ٢١.

(٣) - جمال رشيد احمد، لقاء الأسلاف الكرد والالان في بلاد الباب وشروان، مؤسسة رياض الريس للنشر، د.م، ١٩٩٤م، ص ٦٩.

(٤) - محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري، ديوان لغات الترك، مطبعة عامرة، دار الخلافة العلية، ١٣٣٣هـ، ص ٢٢٤.

(٥) - أحمد، لقاء الأسلاف، ص ٦٨.

(٦) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ٥٨.

(٧) - جون باشينو، سفر نامه تركستان ما وراء النهر، ترجمة ما دروس داود خانف، انتشارات مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگی، طهران،

١٣٧٢ش، ص ٢٨٢.

(٨) - نفس المرجع، ص ٢٨٣.

طائفة (سارت) إلى أن السارت كانت في الواقع طائفة تركية خالصة، وقد استقرت في بعض مناطق ما وراء النهر وخاصة (فرغانة) ووصلت إلى خوارزم، وامتنت التجارة عبر القوافل (١).

وبحسب المؤرخ (بارتولد) فإن لفظ (سارت) كان يعني عند الأتراك التاجر، وإن اللفظ ورد إلى الأتراك من جيرانهم الهنود عندما كان أغلب المتاجرين مع الترك من أولئك الهنود، ثم انتقلت الكلمة مع انتقال التجارة من الهنود إلى أيدي الإيرانيين، لكن اللفظ لم يستعمل بمذلوله العرقي عند الأتراك إلا بعد الفتح الإسلامي (٢).

وعودا على روح الأنفة التي اتصفت بها جموع الأتراك ببلاد ما وراء النهر فإن تلك الصفة لم تكن وقفا على المحاربين والمقتدرين من أبناء العشائر بل طالت بعض جموع الأرقاء، والمعدمين، وحتى الفقراء السائلين الذين دعته ظروف الحياة الإقطاعية في بلاد ما وراء النهر إلى سؤال الناس الكفاف والاستطعام، فقد روى الرحالة العربي (ابن فضلان) في رحلته المشهورة نحو بلاد الترك أن لهم رسما في السؤال يختلف عن رسوم غيرهم من السائلين، حيث قال: "ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب، بل يدخل إلى دار الواحد منهم، فيقعد عند ناره ساعة يصطلي، ثم يقول (بكند) (٣)، يعني الخبز، فإن أعطوه شيئا اخذ، والإخراج" (٤).

والعبارة السابقة موجودة لدى (ياقوت الحموي) في معجمه بنصها وفصها، إلا أنه يبين أن ذلك ديدن أهالي (الرساتيق) (٥)، أي المراعي والقرى دون المدن، حيث يقول نصا "هذا من رسمهم صحيح، إلا أنه في الرستاق دون المدينة، شاهدت ذلك" (٦).

ومن عاداتهم كذلك التبكير في الزواج وذلك لحاجتهم للنسل وتفاخرهم بكثرة الولد، وكذلك حياة الحرب والفروسية التي كانت تدمغ علاقاتهم العشائرية الخاصة في رساتيق المدن والسهول الممتدة خارج القرى حيث مضارب القبائل المتعددة (٧)، وهذا مما أثر في الأعداد الفقيرة لجموع الترك في بلاد ما وراء النهر وفي حدودها الشرقية المصاوبة للثبت وبلاد الصين فالترك أجناس متعددة وعناصر كثيرة وأعدادهم غفيرة (٨).

(١) - رحيم مسلمانيان قبادياني، تاجيكان در تاريخ، جاب أول، انتشارات كتابفروشيهاي، بيروت، ١٣٣٩ش، ص ص ٣٠ - ٣٢.

(٢) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ٥٨.

(٣) - بكند: لفظ فارسي معناه الخبز وهو بلسان خوارزم: ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ٣٩٨. والخبز عند الترك يسمى (أكمك) ويلفظ أحيانا (أتمك): فارس أفندي الخوري، كنز لغات قاموس تركي وفارسي وترجمته عربي، مطبة المعارف، بيروت، ١٨٧٦م، ص ص ١٢، ٣٣. كذلك: الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثاني، ص ٤٤.

(٤) - أحمد بن فضلان بن راشد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخرز والروس والصقالبة، تحقيق سامي الدهان، منشورات الجمع العلمي، دمشق، ١٩٥٩، ص ٨٤.

(٥) - الرساتيق: جمع رستاق وهو مشتق من الفارسية (روذه فستا) ومعناها الصف أو السطر، والرستاق اسم لكل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن: ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الأول، ص ص ٣٧، ٣٨.

(٦) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ٣٩٨.

(٧) - نادرة بديعي (أميرة أي از أفسانة وتاريخ) تاجيكان أربيهاي وفلات إيران، انتشارات صدا وسيماي، تهران، ١٣٨٣ش، ص ١٨٤.

(٨) - أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٩٨.

وقد استوقفت كثرة الأتراك وتعدد تفرعاتهم العرقية والعشائرية العديد من البلدانين والجغرافيين المسلمين وحاول بعضهم تتبع بعض سميات تفرعات الأجناس العرقية للأتراك الذين كانوا بحسب المؤرخ (اليقوي) صاحب كتاب (البلدان) أجناسا عدة وممالك متفرقة^(١)، أرجعهم البعض إلى الأصل العرقي المسمى (التوازي)^(٢)، فيما اعتبرهم البعض سلالة قوم سكنوا بلاد ما وراء النهر قديما يسمون (الهياطلة)^(٣)، لكن الواضح أنهم كانوا قبائل وجموع غفيرة، فبحسب ألفاظ (اليقوي) فإن الترك "عدة أجناس وعدة ممالك، منها الخرخية والتغزغز وتركش والغزية، ولكل جنس من الترك مملكة منفردة"^(٤).

ومن عاداتهم الاجتماعية المشهورة كذلك إباء التعدد، فالرجل في العشيرة التركية لا يتزوج إلا بواحدة^(٥)، وهذا ما أدى إلى الاستعاضة عن التعدد بكثرة الجواري بالنسبة للمتنفذين من (الدهاقنة)^(٦)، وكبار التجار وملوك الأراضي فوجود الجواري بكثرة أمر مألوف لديهم^(٧).

وقد ورد في كتاب (سفرنامه تركستان) في شأن طقوس الأصهار بالنسبة لعشائر الأتراك، أن التصاهر لا يخلو في العادة من وجود مطالب توازي المهور والنحل، فقد كان ذوو الفتيات يوضحون لمن يصهر إليهم مطالبهم لإقرار المصاهرة^(٨)، والغالب أن تكون تلك الطلبات عينية من الأتواب والحلي والدواب^(٩).

ويبدو أن الأتراك لم يكونوا من المغالين فيما يختص بالمهور، وذلك لكثرة أعدادهم من جهة، ولتبكيرهم في الزواج وحاجتهم للولد من ناحية أخرى، حيث لم يكون لديهم سقف محدد بالنسبة للتكاثر في عدد الولدان، حيث لم تكن الأسرة الواحدة لتقل عن ثلاثة أولاد في أسوأ الظروف^(١٠).

ومن الممكن القول أن التبكير في الزواج فوق أثره الاجتماعي كان يحوي مزية أخرى تحمل هدفا اقتصاديا حيث تعتبر الفتاة عاملا مساعدا للأسرة التي تنتقل إليها في الأعمال الخاصة بغزل الأصواف وصناعة الملابس، وخياطة

(١) - أحمد بن أبي يعقوب بن وهب اليقوي، كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٠م، ص ٧٤.

(٢) - توران: أسم للعنصر البشري الذي ينتسب إليه الأتراك: محمد بن حسين خلف تبريزي، برهان قاطع، جلد أول، باهتمام محمد معين، مؤسسة انتشارات أمير كبير، تهران، ١٣٦٢ش، ص ٥٣٠، ٥٣١. وقد أطلق أسم توران على مجمل ما وراء النهر لغلبة العنصر - التوراني عليها: عماد الدين اسماعيل أبو الفداء بن شاهنشاه، تقويم البلدان، تصحيح ماك كوين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٣٠م، ص ٤٨٤. وتوران مصطلح جغرافي يدل على المنطقة المحاذية لإيران من جهة الشرق حيث يعتبر نهر (أموداريا) جيحون الحد الفاصل الطبيعي بين بلاد إيران وبلاد توران: بارتولد، تركستان، ص ١٤٥.

(٣) - الهياطلة : جنس بشري تنسب إليه الترك، حيث اعتبرت قبائل الأتراك من ضمن بقايا أولئك الهياطلة: أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم، الطبعة الأولى، مطبعة عثمان خليل، القاهرة، ١٩٣٠م، ص ٧٧، بارتولد، تاريخ الترك، ص ٣٥.

(٤) - اليقوي، البلدان، ص ٧٦.

(٥) - جرجي زيدان، طبقات الأمم أو السلالات البشرية، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩١٢، ص ١٥٣.

(٦) - الدهاقنة: جمع دهقان وهي كلمة فارسية أصلها (دهكان) ومعناها الفلاح القروي، ثم تطور المفهوم ليشمل معنى الرجل الأصيل ذي النسب الشريف: يوسف شاه يعقوب شاه (ناجيكان بيرامون انتوكينز) ناجيكان أربايبهاي وفلات إيران، انتشارات صدا وسيماي، تهران، ١٣٨٣، ص ١٣١. وفي طور لاحق صارت الكلمة تدل على ملاك الأراضي وزعماء القرى: تبريزي، برهان قاطع، جلد دوم، ص ٩٠٥.

(٧) - الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثالث، ص ١٧٣.

(٨) - باشينو، سفرنامه تركستان، ص ٢٨٥.

(٩) - ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص ٩٣.

(١٠) - بديعي، أميرة أي أز أفسانة، ص ١٨٨.

اللبود (١) الجلدية والأخفاف (٢)، وغير ذلك من الصناعات اليدوية وذلك مما جعل الأمهات يحرصن على إكساب بناتهن تلك المهارات في سن مبكرة، حيث يعلمنهن الحياكة والغزل وصنع الملابس والأكسية، وهي بلا ريب أعمال تحتاج دربة ومرانا وحسن صنعة (٣).

وفي إطار مراسم التزويج الموروثة عندهم ظهرت أنماط متقاربة لدى العشائر التركية في حفلات الزواج، فقد كانت العروس تحمل على حمل من ذوات السنامين، ويكون لونه أبيض في العادة (٤)، ويسمى هذا النوع من الجمال البيض (دهانج) (٥)، وتلبس العروس ثوبا حريريا يحمل خطوطا بيضاء وعليها حليه فضية في الأغلب، وقد تكون من الذهب ويصحبها موكب من الرجال والراكبين (٦)، وكانوا يقومون في حفلات الزواج بعمل حلقات كبيرة للرقص، وقد سجل المؤرخ (بارتولد) إحدى أشهر رقصاتهم حين ذكر أن لهم رقصة معروفة يقوم الراقصون أثناءها بالجلوس والقيام في حركات متتابعة وفي حلقات كبيرة تعمل لهذا الغرض تعبيرا عن مشاركتهم لأهل العربي فرحتهم (٧).

* مثالب الأتراك قبل الإسلام:

كان حياة البداوة وشظف العيش وقساوة الأنواء ببلاد ما وراء النهر، علاوة على الموروث العقدي الزرداشتي (٨)، أثرها في ظهور العديد من المثالب والكثير من المعتقدات والعادات السيئة البالية والتي شملت العديد من نواحي معيشة العشائر التركية في بلاد ما وراء النهر بأقاليمها العديدة وفي أطراف المدن والقرى، حيث عاشت القبائل الرحل الظواعن التي تسعى بقطعانها من الدواب بين الرساتيق والسهول الممتدة حتى حدود التبت. وأول مظهر اجتماعي يسم المجتمعات التركية هو التمايز الطبقي، حيث كان الدهاقنة والأمراء والملوك يتصفون بالتنفيذ وملك رقاب الناس، في طقس توارثي مهين، فالملك متوارث غالبا في الأسرة الواحدة، ولكل منطقة أو إقليم أسرة معروفة تتوارث الحكم ويكون أحد أفرادها زعيما أو حاكما للإقليم كله، ويتقلب حاكم كل إقليم بلقب يميزه عن غيره، وقد وصل بعض تلك الألقاب إلى حد التعظيم والتقدیس، فحاكم إقليم بخاري (٩)، على سبيل

(١) - اللبود: جمع لبادة وهي لباس محشو بالقطن: كوركيس عواد، الذخائر الشرقية، المجلد الخامس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٣٩١.

(٢) - الأخفاف: جمع خف وهو ما يلبس في القدم وهو من مشهور لباس ما وراء النهر: شمس الدين أبو عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٩م، ص ٣٢٧.

(٣) - الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثالث، ص ٧٨، ٨١.

(٤) - بديعي، اميزة أي أز أفسانه، ص ١٨٩.

(٥) - أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، المغرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم، الطبعة الثانية، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٠٢.

(٦) - بديعي، اميزة أي أز أفسانه، ص ١٨٩.

(٧) - بارتولد تاريخ الترك، ص ٢٦.

(٨) - الزرادشتية: ديانة تنسب إلى زرادشت بن بورشب الذي زعم أنه نبي، وقال بالصراع بين النور والظلام، وصنف كتاب يسمى (زند أستا) أو (زند أوستا) فيه العديد من أفكاره: أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الثاني، مؤسسة الحلبي للنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤١ وما بعدها.

(٩) - بخاري: من أشهر أقاليم ما وراء النهر واشتهرت في العهد الساماني بكثرة علمائها وهي أول الأقاليم بعد عبور نهر جيحون.

المثال كان يسمى (بخارا خدات) ^(١)، ولفظ (خدات) المشتق من كلمة (خدائي) يشير بوضوح إلى معنى الإلهية ^(٢)، وكذلك حاكم إقليم أشروسنة ^(٣)، كان يسمى (الأفشين) ويلقب (بغ بغان) ^(٤)، وهذه تعني بلا مواربة إله الآلهة ^(٥).

وقد كانت ألفاظ التشريف والتعظيم منتشرة في اللسان السغدي ^(٦) القديم، وهو اللسان الذي انتشر - في منطقة (السغد) ^(٧)، التي تشمل الأقاليم الممتدة من حدود (سمرقند) ^(٨)، إلى سواحل نهر سيحون الغربية ^(٩)، حيث، لاصقت ألفاظ (خدا) و (بغ) أغلب ألقاب التشريف في تلك المناطق ^(١٠).

وفي تفسير لفظ (خدائي) ما يؤكد انه لتعظيم الإنسان وإعطائه صفة تخرجه عن إطاره الإنساني كمخلوق، فالمصطلح مركب من (خود) بمعنى الذات، ومن (آي) بمعنى أتى أو جاء، ومعناها الاصطلاحي (الذات الموجودة) أو (واجب الوجود) ^(١١).

وفي بعض ألقاب التشريف الأخرى بعض تلك المعاني، فملك إقليم (فرغانة) ^(١٢) كان يسمى (أخشيد) ومعناها نور الشمس أو بياض الشمس ^(١٣)، ولقب ملك (سمرقند) هو (طرخان) ^(١٤)، ومعناها المعفي من التكاليف ومن العتب والتكدير، وقد كان في ظن العامة ببلاد ما وراء النهر أن الناس غير متساوين في يقين الآلهة، وفي طقوسهم وفي مقادير الخلائق، وبالتالي فإن الحياة وفق مذهب (زرادشت) صراع بين الحق والباطل بين النور والظلمة ^(١٥).

(١) - بارتولد، تركستان، ص ٢١٢.

(٢) - الخوري، كنز لغات، ص ١٤٢.

(٣) - اشروسنة: من الأقاليم الواقعة بوسط ما وراء النهر شرقي سمرقند.

(٤) - سردشتي، أسروشنة، ص ٤٩.

(٥) - عبد الوهاب علوب، الواعد معجم فارس عربي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٨٣.

(٦) - اللسان السغدي: لسان تركي قديم تكلمت به بعض قبائل الترك في آسيا الوسطى وكان متأثراً باللسان الفارسي: آرثر كريستينسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٣، وقد أشار المؤرخ الحميري إلى انتشار اللسان السغدي في بعض بلاد ما وراء النهر حيث قال عن لغة أهل بخاري مثلاً "لسان بخاري لسان السغد يحرف بعضه قليلاً": أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠م، ص ٨٣. ولكون كلمة السغد تشير في الأصل إلى عنصر بشري فقد نشأت لغة التخاطب هذه والتي عرفت باسم اللسان السغدي: زهرة زرشناس (ألقاب زنان أشرافي دو نوشتة هاي سغد) فصلنامه فرهنگستان زبان وادب فارسي، دورة بنجم، شمارة چهارم، مسلسل ٢٠، وزارت علوم وتحقيقات فناوري، تهران، ١٣٨١ش، ص ٧٧.

(٧) - السغد: تلفظ أحياناً الصغد بالصاد وتشير إلى المنطقة الجغرافية الواقعة بين نهر جيحون وسيحون: كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م، ص ٥٠٣، في حين حاول المؤرخ الروسي (بارتولد) حصر - منطقة السغد بين إقليمي

بخاري وسمرقند حول حوض نهر يسمى (زرشنان) بارتولد، تاريخ الترك، ٢٤.

(٨) - سمرقند: إقليم معروف ببلاد ما وراء النهر يأتي بعد بخاري في الموقع والأهمية.

(٩) - جيحون: النهر المعروف قديماً باسم اموداريا وهو الحد الفاصل بين بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر

(١٠) - زرشناس، ألقاب زنان أشرافي، ص ٧٨.

(١١) - أدب شير، الألفاظ الفارسية المعربة، الطبعة الثانية، دار العرب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٥١.

(١٢) - فرغانة: إقليم معروف في أقصى شرق بلاد ما وراء النهر وقريب من حدود التبت.

(١٣) - سردشتي، أسروشنة، ص ٤٩.

(١٤) - أدب شير، الألفاظ الفارسية، ص ١١، وطرخان معرب (ترخان) وهو السيد ذو الجاه والخطة، تبريزي، برهان قاطع، جلد سوم، ص ١٣٥٠.

(١٥) - الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الثاني، ص ٤١.

وبالتالي فإن البؤس والشقاء والعبودية من ضمن تلك الحالة من الصراع ولا مناص من القبول بها والرضى التام بوجودها^(١).

كما قبل العوام وجود الملوك المعظمين والدهاقنة المتنفيين والأغنياء المنعمين، واستكانوا لحياة الكد والعناء التي وصلت إلى حد العبودية والاسترقاق بل والسخرة في أحيان كثيرة^(٢)، فظهرت في المجتمعات التركية طبقات الحكام والدهاقنة وكبار الملاك في المدن والقرى، وتبعهم جمع من المقرين يسمون طبقة (الشاكارية)^(٣)، شملت الفرسان والمحاربين وأبناء الدهاقنة، ولهم مزايا خاصة نظير حراستهم للملوك والدهاقنة ومشاركتهم في حروب وغزوات أولئك.

ولهذا حظي كل زعيم وكل دهقان بمنزلة اجتماعية خاصة، فكان الدهقان صاحب الأمر والنهي فيما يتعلق بإقطاعيته أو قريته، علاوة على علو الشأو ورفعة المكانة^(٤)،

وهناك التجار أصحاب الغنى واليسار الذين أثروا من تجارة القوافل عبر الشرق وصولاً إلى الصين ومع بلاد فارس من جهة أخرى، وبدأت تلك الفئة في الظهور كطبقة ذات رفاه وسعة، فامتلكت القوافل والضياح وبنيت القصور واستقرت أعداداً كبيرة من العمال والخدم والفلاحين^(٥).

ولم تكن الأعراف الاجتماعية لتمنع التاجر إذا زاد غناه وكثرت أملاكه من أن يصبح في عداد الدهاقين، فالدهقنة متاحة لكل ذي يسار، وهي صفة متوارثة في ذات الأسرة، حيث كان لكل دهقان ولي عهد أو عقب يرثه يحمل لقب (ينال)، حيث كان من المعلوم في عرفهم أن "لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال أي ولي عهد"^(٦).

وقد استمد كل أصحاب النفوذ من الحكام والدهاقنة وكبار التجار مكانتهم وشرعيتهم من دعم طبقة رجال الدين المعروفين باسم (الهرابذة)^(٧)، وهم سدنة بيوت النار وعبدتها^(٨)، الذين كثرت ثرواتهم وأموالهم من دعم أولئك

(١) - نفس المصدر، ص ٤٢، وما بعدها.

(٢) - يعقوب شاه، تاجيكان بيرامون، ص ١٣١.

(٣) - الشاكارية: أصلها الجاكارية ومعناها الأتباع والخاصية: إبراهيم السامرائي، التكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٦، ص ٢٠.

(٤) - تبريزي، برهان قاطع، جلد، ٩٠٥.

(٥) - سميحة أبو الفضل، السامانيون ودولتهم في ما وراء النهر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص ١٠٧.

(٦) - الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٧٧.

(٧) - الهرابذة: جمع هربذ وهو لقب لرجل الدين في بيت النار المجوسي: الخوارزمي مفاتيح، ص ٢٦، واللفظ عند تبريزي (هربذ) بالبدال المهملة ومعناها

الخادم في بيت النار: تبريزي، برهان قاطع، جلد جهارم، ص ٢٣٢٠.

(٨) - إمام علي رحمان، الطاجيك في مرآة التاريخ، الجزء الأول، تعريب مكارم الغمري، دار الفكر العربي، العاشر من رمضان، ٢٠٠٩م، ص ١٣١.

الحكام والدهاقنة والتجار، بالإضافة إلى جموع (المواحدة)^(١)، وهم نوع من القضاة الذين يفصلون في القضايا الخاصة بمعابد النيران وفق الدين الزارديشتي^(٢).

وكل تلك الفئات زادت من سوء أوضاع العامة من الفلاحين والعمال وصغار التجار والرقيق، ما أنشأ وضعاً اجتماعياً قاهراً قوامه الطبقة والتمايز التي تستمد شرعيتها من دين الناس نفسه، فكل خروج عن تعاليم وأوامر هذه الفئات المنتفذة ما هو في الواقع إلا اعتراض على أحكام الدين وخروج عنه، بل ويلتزمون فوق ذلك بدفع ضرائب وإتاوات لمعابد النار المجوسية^(٣).

ومن مثالب الأتراك الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام ما يتعلق بالموت والموتى، فقد كان في معتقدتهم المتوارث أن الموت شيء يبعثه الشيطان الذي يسمونه (أهرمان)^(٤)، وفق المذهب الزارديشتي، وبما أن مقدسات الزارديشتية هي النار والماء والهواء والتراب^(٥)، فلا يجوز تدنيس هذه المقدسات، ودفن الموتى في التراب والحال هذه يعني تدنيس التراب بفعل جثة الآدمي التي لا بد من تحليلها وتعفننها، وبالتالي فالدفن في التراب من المحرمات وفق مذهبهم، وعليه فقد حرم تحريماً باتاً تلويث العناصر المقدسة والتراب من ضمنها بدفن الجثث أو حرقها^(٦).

وقد استعيض عن الدفن في التراب بنظام عرف باسم (دخمة)^(٧)، وهي مواضع تبني على قمم الجبال الصخرية توضع فيها حث الموتى لتترك للجوارح لكي تلتهمها وتطهر المقدسات منها في زعمهم وهذا ما تأثير تعاليم الزارديشتية التي انتشرت في أغلب مناطق ما وراء النهر وما صاقبها من بلاد التبت الشرقية، حيث انتشرت معابد الدين الزارديشتية وظهرت بيوت النار في غير مدينة وقرية، وكانت تسمى (آذران)^(٨)، ولفظة (آذر) تعني النار^(٩). وقد سجل الرحالة الصيني (أكسوان زانغ)، الذي زار بلاد ما وراء النهر في حدود سنة ٦٢٧ بالتقويم الصيني أن الدفن لم يكن معروفاً، وإن الجثث كانت تترك في العراء غالباً^(١٠)، وكان هذا الطقس موجوداً بكثرة في المناطق والرساتيق الشرقية لبلاد ما وراء النهر القريبة من حدود التبت.

(١) - المواحدة: جمع موبد وهو الكاهن في الديانة الزارديشتية: علوب، معجم الواعد ص ٣٨٤، وهو القاضي المجوسي: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٩٧٥، وقد تنطق بالبدال (موبد) ومعناها الحكيم العالم تبريزي، برهان قاطع، جلد جهارم، ص ٢٠٤٨.

(٢) - كانت أحكام المواحدة في الواقع تطبيقاً لتعاليم كتاب زرادشت (الافستا): الشهر ستاني، الملل والنحل، ص ٤٣، كذلك رحمان، الطاجيك في مرآة التاريخ، ص ١٢٥.

(٣) - كان دفع الإتاوة شيئاً مألوفاً في مضارب القرى التركية: أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ص ٤٠، ٤١.

(٤) - أهرمان: لفظ يعني الشيطان: الشهر ستاني، الملل والنحل، ص ٣٩. وهو رمز الشر والظلام ويعيش في حالة صراع دائم مع شقيقه التوأم (أهورامزدا) رمز الصفاء والنور في زعمهم: علوب، معجم الواعد، ص ٤٩.

(٥) - رحمان: الطاجيك في مرآة التاريخ، ص ١٣١.

(٦) - كريستينسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ٢٤.

(٧) - دخمة موضع يبني على قسم الجبال لتوضع فيه جثث الموتى: تبريزي، برهان قاطع، جلد دوم، ص ٨٢٧. وتترك الجثث في تلك الدخات لتنهشها العقبان: كريستينسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ٢٤.

(٨) - كريستينسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ١٥٢.

(٩) - علوب، معجم الواعد، ص ٥٦. وتطلق كلمة آذر كذلك على الجمر واللهب: الخوري، كنز لغات، ص ١٥.

(١٠) - lee shing and others ; dust in the wind: Retracing Dharma, master xwan- zang's western pilgrimage, Taipei, p 278.

وفي نفس السياق المتعلق بالموتى فإن الأتراك كانوا يقيمون أياما للعزاء قد تمتد لثلاثة أو سبعة أيام، يقدمون طعاما يسمى (يوغ) ^(١)، ومعناها (ذكرى الموتى) ^(٢)، ويحرصون على إطعام الأهالي في القرية أو القبيلة تكريما لذلك الميت الذي كثيرا ما يقدم طعاما للجوارح هو نفسه، وفي طور لاحق وبعد احتكاك الأتراك بمحضارات أخرى منها الساسانية في بلاد في بلاد فارس، ظهر الدفن في التراب كحالة موازية لنظام الدخات الذي عرف في بعض أطواره باسم (الدفن السماوي)، ورغم ذلك فقد ظلت طريقة الدفن السماوي موجودة في رساتيق الأقاليم وخاصة في الأجزاء الشرقية.

ولم يكن ذلك كل ليوقف تأصيل عادات الدفن العجيبة عند الأتراك، حتى بعد مقدم الفاتحين المسلمين بزمن، حيث بقيت القبائل غير المسلمة على طقوسها القديمة، فقد ذكر الإدريسي عن قبيلة تركية تعرف باسم (خرخيز) ما نصه "وهو يحرقون موتاهم، ويلقون رمادهم في نهر... ومن كان بعيدا عن ذلك النهر، يحرق ميتة ثم يذريه على الأرض مع الريح حتى يذهب" ^(٣).

ومن مثالب العشائر التركية كذلك عدم الالتفات إلى مسألة التذكية فيما يؤكل من الدواب، فقد كانت القبائل بما وراء النهر تعتمد إلى ضرب الدابة بقسوة ووحشية حتى تموت، وقد وقف الرحالة العربي (ابن فضلان) على مثل هذا الطقس، فذكر أنه حين مر بمضارب بعض عشائر الأتراك وجد أنهم لا يذكرن الأنعام بل يعمدون إلى قتلها بالضرب حتى تموت ^(٤)، وفي طور لاحق من تاريخهم كان إذا مر بهم مسلم أعطوه شاه ليذبحها بنفسه ^(٥).

ومن مثاهم كذلك عدم إيلاء أهمية لختان الوالدان، حيث لم يكن في عرفهم أو دينهم مثل ذلك، حيث اعتبر الاختتان أمرا غير ذي جدوى وهو بحسب وصف أحد ملوكهم شيء ربما يجز للهلاك، حيث قال "خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت" ^(٦)، وعلاوة على ذلك لم يكن أكل الميتة والمخنوقة شيئا سيئا عندهم ^(٧). ومن عيوبهم الاجتماعية كذلك التطير والتشاؤم، والإيمان المطلق بالخرافات والأساطير، وتعظيم الجبابة من أسلافهم، ففي مجال الاعتقاد بمقدرة العوالم السلفية وسطوتها، كان الأتراك على قناعة بأن للجن مقدرة عجيبة على التحكم في حياة البشر، ومن ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن الجن يؤثر بشكل كبير على نتائج المعارك الحربية، حيث يؤمنون بأن الليلة السابقة لاشتباككم مع أي عدو، تشهد اشتباكا بين بعض عوالم الجن المناصرة لهم مع طائفة أخرى من الجن المناصر لعدوهم، ونتيجة معركة الجن الليلية تحدد سلفا نتيجة معركة الإنس في اليوم التالي،

(١) - يوغ: كلمة فارسية معناها القيد والرباط: علوب، معجم الواعد، ص ٤٤٠.

(٢) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٣٦.

(٣) - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥٢٠.

(٤) - ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص ٩٥.

(٥) - نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٦) - هذه العبارة قالها الفشين حيدر بن كاوس حاكم إقليم أشروسنة زمن الخليفة العباسي المعتصم، وكان من أشهر قادة المعتصم ثم ظهرت بوادر تمجسه ومخالفته العقيدة وإضماره الكفر، فكان من ضمن ما طعن عليه أنه كان أقلف أي غير محتون، وقد سجن وعذب وقيل مات في محبسه: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء التاسع، ص ١٠٨، ١٠٩.

(٧) - الذهبي، دول الإسلام، ص ١٩٥، الطبري، تاريخ الأمم والملوك ص ١٠٧.

وللتأكيد على صدقية الأمر وحتمية حدوثه، كان قادتهم ورجال الدين المرافقين لهم في المعارك يمنعونهم من الخروج من خيامهم ليلة المعركة لئلا تصيبهم سهام الجن المتناحرة^(١).

وفي سياق متصل آمنت عشائر الترك الرحل بقدرة الجن على حفظ الأجنة في بطون أمهاتهم، فعندهم آلهة من الجن تدعى (أوماي)^(٢)، موكلة بالحفاظ على الأجنة^(٣)، ومن أمثالهم الشعبية مثل يقول: "من يخدم أوماي يزرق ولدا"^(٤)، هذا بالإضافة إلى طوائف الجن الموكلون بالمعارك الحربية سالفة الذكر، والذين كانوا يعرفون باسم (جاوي)^(٥)، ومن مفسد ظنهم في هذا الشأن، ما اشتهر عندهم من أن أرواح الموتى تجتمع كل عام في ليلة محددة، فتدخل الأمصار والقرى التي كانت فيها حياة أجرامها وأجسامها، فتزور أهلها وذوي قرابتها، وفي تلك الليلة تحدث جموع الأرواح دوا وجلبة واضحة يسمونها (تكى)^(٦)، ومن صادفه ذلك الدوى في تلك الليلة مات لوقته^(٧).

ومن عاداتهم السيئة ما ذكره (أبو دلف الخزرجي) عن قبيلة تسمى (البجناك) حيث أنهم "هجم يغير بعضهم على بعض، ويفترس الواحد منهم المرأة على الطريق" وهذا ما أكدته المؤرخ المعروف (القزويني) حيث قال عن تلك القبيلة "يغير بعضهم على بعض، ويفترشون نساءهم بمراى الناس، لا يستقبحون ذلك كالبهائم"^(٨). كما كان سكان بلاد (جكل)^(٩)، من الترك الذين يعبدون النجوم ويتزوجون من الحارم^(١٠)، ويصنعون شرابا من نبات يسمى (الدادى)^(١١)، يخلطونه بدم الحيوانات فيصير مسكرا شديدا إذهاب العقل^(١٢). ومن عادات قبيلة تسمى (كيماك)^(١٣)، ألا يأكلون لحم الإناث من الضأن والماعز^(١٤)، وإذا جاوز الرجل منهم ثمانين سنة عبدوه إلا أن تكون به عاهة^(١٥)، ويستمتطون إذا أجذبوا بنوع من الحجارة موجودة في بلادهم، ولديهم

(١) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٣٦.

(٢) - أوماي: مصطلح من كلمتين (أو) ضمير الغائب: علوب ن معجم الواعد، ص ٤٨ و (ماي) وهو اسم علم للسحرة والمشعوذين والجان: تبريزي، برهان قاطع، جلد چهارم، ص ١٩٦٣.

(٣) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٣٦.

(٤) - الكاشغري، ديوان لغات الترك، ص ٤٨.

(٥) - جاوي: رسمها الكاشغري بصورة (جفي) بالفاء المثلثة ويقول أنه اسم حزب الجن: الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثالث، ص ١٧١.

(٦) - تكى: لفظ مركب من (تا) وهي صفة عددية تفيد الكثرة: علوب معجم الواعد ص ١١٦، و(كي) ومعناها السلطة والقوة: تبريزي، برهان قاطع، جلد سوم، ص ١٧٤٨.

(٧) - الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثالث، ص ١٧٥.

* في هذا دلالة واضحة على حياة الجهل التي عاشتها بعض قبائل الترك ببلاد ما وراء النهر قبل الإسلام: أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤١.

(٨) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٠.

(٩) - جكل: من بلاد الترك وبها قبيلة تسمى كذلك (جكل) أهل خيام يعبد بعضهم الشمس والنجوم: مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٦٧. وأطلق لفظ (جكل) على أغلب الأتراك الشرقيين تمييزا لهم عن بني جلدتهم من الأتراك الغربيين: بارتولد، تركستان، ص ٣٨٨.

(١٠) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٢.

(١١) - الدادي: اسم لنوع من النبات له حب مثل الشعر وله استعمالات طبية: تبريزي، برهان قاطع، جلد دوم، ص ٨٠٩.

(١٢) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٢.

(١٣) - الكيماك: قوم من الترك، بيوتهم من جلود الحيوانات، وفيهم بعض المثالب العقيدية: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٨.

ولديهم قناعة بأن تلك الحجارة تجلب المطر وتسوق السحاب^(٣)، وقد ذكر ذلك البلداني المعروف (ابن الفقيه) في كتابه (مختصر كتاب البلدان) أن الاستمطار بتلك الحجارة من ضمن ظنوفهم التي لا ينكرها منهم أحد، غير أن تلك الحجارة لا توجد إلا عند ملك (التغزغر)^(٤)، ولا توجد عند غيره، وهم يستمطرون بها متى شاءوا من مطر أو ثلج^(٥).

وكان الترك (التغزغر) المشار إليهم يأكلون المذكي وغير المذكي لا فرق عندهم^(٦)، أما قبائل (خرخيز)^(٧)، فإنهم كانوا يسجدون للأطفال حين ولادتهم^(٨)، ويتطيرون من بعض الكواكب، ولا يقومون بإطفاء السراج في البيت حتى ينطفئ لوحده^(٩).

أما قبائل (الخرخ)^(١٠)، فإن الزنا فيهم ظاهر، ويقامرون فيما بينهم لحد أن يقامر أحدهم ببعض حرمه من امرأة أو ابنة أو ولد^(١١)، كما أنهم قليلو الغيرة، حيث تعترض المرأة منهم طريق القوافل وتختار رجلا منهم تصحبه إلى بيتها، وزوجها وأقاربها يقومون بحوائجها ما دام ذاك مقيما عندها^(١٢).

أما قبيلة (الخطلخ) فإنهم يأكلون سائر اللحوم غير مذكاة، ويتزوجون الأخوات^(١٣)، وتمنع المرأة عندهم من الزواج بعد وفاة زوجها لأن العادة لديهم ألا تكون المرأة إلا لزوج واحد في حياتها^(١٤).

وذكر (ياقوت الحموي) صاحب (معجم البلدان) أن لبعض قبائل الترك عادة غريبة في الزواج، حيث أن الفتيات الأبكار عندهم لا يغطين رؤوسهن، وهذه علامة على عدم الزواج، فإذا أراد رجل منهم الزواج بواحدة منهم ألقى على رأسها الحاسر ثوبا أو رداء أو نحوه، وذلك الطقس هو علامة إتمام الأمر، فقد ذكر (الحموي) ما نصه: "من سننهم أن البنات البكور مكشفات الرؤوس، فإذا أراد الرجل أن يتزوج ألقى على رأس إحداهن ثوبا، فإن فعل ذلك صارت لا يمنعه منها مانع"^(١٥).

(١) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٥.

(٢) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٨.

(٣) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٥.

(٤) - التغزغر: من أشهر عناصر الترك بما وراء النهر، يتميزون بالكثرة، لهم عيد عند ظهور قزح، وليس لهم بيت عبادة: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٢.

(٥) - أبو بكر أحمد بن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ٣٠٢هـ، ص ٣٢٩.

(٦) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٦.

(٧) - الخرخيز: فصيلة من العناصر التركي لهم بلاد تعرف باسمهم: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٣.

(٨) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٧.

(٩) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٣.

(١٠) - الخرخ: قوم من الترك أهل بغي وظلم ومفاسد: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٤.

(١١) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٤٨.

(١٢) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٤.

(١٣) - أبو دلف، الرسالة الأولى، ص ٥٠.

(١٤) - القزويني، آثار البلاد، ص ٥٨٥.

(١٥) - الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ٣٧٩.

وعندما يولد طفل لأسرة ما فإن السؤال كان (بوربي؟ تيلكيمي؟) ومعناها (ذئب أم ثعلب؟) كناية مجازية عن جنس المولود بدل أن يقولوا: ولد أم بنت؟^(١)، وعند بعض القبائل وبسبب اختلاف اللهجات كان السؤال عن المولود الجديد بكلمة (تيرانداز) معناها (رامي) كناية عن المولود الذكر^(٢) وفي ذلك تفضيل للذكور من الوالدان.

* أثر الإسلام والعروبة في عادات الأتراك الاجتماعية:

ذكر ابن خلدون في مقدمته أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار، والأزمنة والدول^(٣).

ولم يكن التغير الذي طرأ على حياة ومعاش وعوائد ومناهج الأتراك بعد إسلامهم، وليد التطور الحاصل داخل المجتمعات التركية في بلاد ما وراء النهر، حيث أن تلك الجماعات لم تنل فرصة من التمدن والحضارة قبل الإسلام^(٤).

كما لم يكن نتيجة لتطور فكري ذاتي ناجم عن حالة معرفية وليدة المجتمعات التركية ذاتها، كما لم يكن نتيجة لحتمية المادية التاريخية^(٥)، التي تقرر أن تطور الحياة المادية وكل ما يتعلق بأحوال المعاش من الاقتصاد والإنتاج تقود بالضرورة بالضرورة إلى تبدل في الأحوال الاجتماعية في نسق متطور مع تقدم الأحوال الاقتصادية والمعيشية^(٦).

إنما كان الإسلام كدين وعقيدة تحمل في ثناياها كما معرفيا من تقويم المسلك وتصويب المنهج للإنسان، وما أحدثته تعاليم الإسلام من صدى في نفوس الشعوب التركية في بلاد ما وراء النهر كان أكد عوامل ذلك التغير، وذلك حين رأى التركي أن سبب استقامة المسلم هو صلته الوثيقة بهذا الدين وتمسكه بمبادئه والتزامه بشرائعه وحدوده.

وقد شعر أولئك الأتراك بأن الإسلام دين مختلف عن شرائعهم السابقة، لأنه يؤصل لحالة عقدية تعبدية متوافقة تماما مع طبيعة الإنسان وناموس البشر، فالإسلام أقر كل مكارم الأخلاق التي تتوق لها نفس الإنسان ونفر من كل ما تأباه طبيعة البشر، وحرّم كل ما تنفر منه غريزة وفطرة الإنسان السوي.

وهو كذلك دين المساواة الحقيقية بين البشر فلا طبقية ولا تراتبية فيه، بل تفاضل بمدى التقوى أي بمدى توافق الأخلاق والسلوك مع الفطرة والمنهج القويم، ولهذا اعتبر الإنسان في الإسلام إنسانا بغض النظر عن عرقه ولونه

(١) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ٢٦.

(٢) - بديعي: أميزة أي أز أفسانة، ص ١٩٠.

(٣) - ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٣.

(٤) - بارتولد، تاريخ الترك، ص ١٥١.

(٥) - هذه أهم أركان النظرية المادية في التاريخ.

(٦) - على عبد الواحد وافي، غرائب النظم والعادات والتقاليد، دار نخضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٣.

ودمه ولسانه فلا مجال للنبلاء دما، ولا للمقدمين اجتماعيا ولا للمتنفذين جاها وسلطانا بل هم في نظر الدين مثل أبقانهم وعبيدهم سواء بسواء، والفارق في الاستقامة، والتمايز في حسن الخلق.

وعندما بدأت فتوحات الإسلام في بلاد ما وراء النهر في القرن الأول الهجري بدأ الأتراك يتعرفون على هذا الدين، والذي يبدو أنه جاء إليهم في أوانه لإحداث تغيير اجتماعي مطلوب، ولعل هذا ما يبرر سرعة انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر خاصة في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي (٨٦ - ٩٦ هـ) وذلك حين كان (الحجاج بن يوسف الثقفي) عاملا على خراسان، وانتدب من لدنه القائد العربي (قتيبة بن مسلم الباهلي) بداية من عام ٨٦ هـ، لمهمة فتح تلك البلاد رغم اتساع أراضيها وقساوة أنوائها، ولعل ذلك مما دعا مؤرخا غربيا مثل (بارتولد) إلى وصف سرعة عمليات الفتح الإسلامي هناك بما يشبه الأسطورة^(١)، في محاولة غير ناجحة للتقليل من نجاعة عمليات الفتح وسرعة سريان الإسلام في تلك الأصقاع.

والواقع أن السكان الأتراك تأثروا بسلوك الفاتحين الذي بدوا غير مهتمين بالمغانم المادية بقدر اهتمامهم بنشر - عقيدة تقوم على فكك الإنسان من ربة الاستعباد والتبعية لإنسان مثله، فعندما اكتملت عمليات الفتح في حدود سنة ٩٤ هـ بفتح إقليم فرغانة، ثم فتح منطقة كاشغر أقصى أقاليم ما وراء النهر من الشرق^(٢)، بدأ الأتراك في تقبل الإسلام والتخلق بعادات المسلمين.

ومن محاسن الإسلام الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر، حدوث ذلك الاختلاط والتمازج الاجتماعي بين الأتراك والفرس والعرب الفاتحين، حيث أقامت قبائل العرب في كل خراسان ثم بخاري وسمرفند وفرغانة والشاش وغيرها من أقاليم ما وراء النهر^(٣)، وقد ذكر اليعقوبي في كتابه (البلدان) "أن في جميع مدن خراسان قوم من العرب من مضر - وربيعة وسائر بطون اليمن"^(٤)، وقد ساعد مقدم العرب إلى تلك الأمصار على حدوث تسرب للغة العربية وللحضارة الإسلامية وللإسلامية وللإسلامية التي تفتح أفقا جديدة لها في بلاد ما وراء النهر^(٥)، وظهر نمط من الاندماج اللغوي والاجتماعي للأتراك في لغة وفي حضارة الإسلام وبشكل تدريجي^(٦).

وبعد تمكن الإسلام من نفوس الأتراك استقامت عاداتهم في التذكية فيها يخص المأكول من الأنعام لأنهم علموا بجرمة ومضار أكل الميتة والمخنوقة والمتردية، وأصبح معلوما لديهم أن المسلم لا يأكل غير المذكاة، وصارت حتى

(١) - بارتولد، تركستان، ص ٣٠٠.

(٢) - محمود شيت خطاب، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ٤٠٢.

(٣) - ولاديمير بارتولد (دراسة فرهنگ آرياييهي آسيائي مركزي) تاجيكان وفلات إيران، جاب دوم، انتشارات صدا وسيمائي، تهران، ١٣٨٣ ش، ص ٢٧. وقد أكد المؤرخ البيهقي على تواجد العنصر العربي ضمن مكونات مجتمع ما وراء النهر بعد الفتح الإسلامي: أبو الفضل محمد بن حسين بيهقي دبیر، تاريخ بيهقي، تصحيح على أكبر فياض، جاب سوم، انتشارات دنياي كتاب، تهران، ١٣٧١ ش، ص ١٢٧. وذكر ذلك ابن رسته في كتابه (الأعلاق النفسية) أن العرب سكنوا خراسان والتي كانت بلاد ما وراء النهر من توابعها الإدارية: أبو علي أحمد بن رسته، الأعلاق النفسية، المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١ م، ص ٢٩٤.

(٤) - اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٧٥.

(٥) - حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٥٤.

(٦) - رمزي رمضان سبلة، التاريخ السياسي والحضاري لبلاد ما وراء النهر، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٠ م، ص ٢٠٠.

القبائل التي على دياناتها السابقة تعتمد إلى دفع الشاة للمسلم عربيا أو فارسيا أو تركيا إذا طرق مضاربهم ليقوم بتدكيته بنفسه (١).

كما زادت لدى الأتراك صفة الكرم التي عرفوا بها، واتخذت منحى إسلاميا جديدا حين ظهر في عاداتهم الاهتمام بإنشاء الرباطات والنزل للمسافرين حتى غدت كثرة الرباطات ببلاد ما وراء النهر ظاهرة تستوقف كل من يطرق تلك البلاد، وقد ذكر الاصطخري ذلك بقوله "الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر، صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير" (٢)، ووفق ألفاظ ابن حوقل فإنه "ليس من بلد ولا منهل مطروق ولا قرية أهلة إلا وفيها من الرباطات ما يفضل عمن ينزل به ومن يطرقه" (٣)، وقد أصبح ذلك النهج مزية تنافس فيها الناس أيما تنافس (٤).

كما استقامت عادات الزواج لديهم حيث أصبح من المعلوم أن الزواج رباط شرعي لا يقوم بمجرد إلقاء ثوب على رأس حاسر مثلاً، بل هو الطلب والقبول والمهر وكلمات الله، وقد رسم ابن فضلان في رحلته نمطا سليما لزواجهم بعد صحة إسلامهم حيث قال "رسم زواجهم هو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه إما ابنته أو أخته أو من يملك أمره، على كذا وكذا ثوب خوارزمي ... وربما كان المهر من الدواب" (٥).

غير أن وفود الأتراك بأعداد كبيرة إلى بغداد منذ عهد الخليفة المعتصم العباسي ذكرانا وإنانا ساهم إلى حد ما في تغير مهر نسائهم (٦)، كما ساهمت بعض سنوات الجذب في قيم المهور في بعض مناطق ما وراء النهر (٧) ورغم ذلك ظلت ظلت نخلات الفتيات شرطا مهما لصحة زواجهن (٨).

ودخل ختان الأولاد طقوس الأتراك حيث بدأت الأسر تقيم احتفالا صغيرا لختان الولد (٩)، ورغم احتفاء الأتراك الأتراك الواضح بالذكور فإن تعاليم الإسلام الخاصة بتقدير الإناث واحترامهن خفقت من حدة الأمر لديهم، بل وأصبح لميلاد الأنثى حفل شبيه بالاحتفال بالمولود الذكر (١٠).

ومع ذلك استمرت في بعض رساتيق القبائل التركية عادة التربية الخاصة بالاهتمام بالطفل الذكر حتى فترة الحلم وقد كان في عرف بعضهم أن يترك الولد إذا بلغ الحلم ليتدبر شئون حياته بنفسه، وقد ذكر الحموي ما نصه "إذا

(١) - ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص ٩٥.

(٢) - الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٢٩٠.

(٣) - ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٨٦.

(٤) - ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٨٧.

(٥) - ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص ٩٣.

(٦) - حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٣٨.

(٧) - بارتولد، تركستان، ص ٣١٠.

(٨) - بديعي، أميزة أي أز أفسانة، ص ١٨٤.

(٩) - نفس المرجع، ص ١٩٠.

(١٠) - باشينو، سفرنامه تركستان، ص ٢٨٥.

ولد للرجل ولد رباه ورعاه وعاله وقام بأمره حتى يحتلم، ثم يدفع إليه قوسا وسهاما ويخرجه من منزله ويقول له: احتل لنفسك، ويصيره بمنزلة الغريب الأجنبي" (١).

كما استمرت بعض احتفالات الأتراك المتعلقة بالأعياد التي أخذوها عن الفرس، ومنها (عيد النوروز) (٢) وعيد (المهرجان) (٣) بما فيها من طقوس عجيبة تعتمد على رش الماء على بعضهم البعض ورش الطحين (٤)، كما استمر في عيد النوروز الطقس الفارسي الخاص بالرقم (هفت) أي سبعة، حيث تقدم مائدة في عيد النوروز تسمى (هفت سين) أي (سبع سينات) وفيها سبعة ألوان من الطعام تبدأ بحرف السين (٥)، ومنها (سيب) أي تفاح، و (سبزه) أي خضار، و (سرکه) أي الخل، و (سنجد) وهو العناب، و (سجاق) وهي المقانق من اللحم، ونوع اسمه (سمنو) وأخيرا (سکه) وهي العملة المسكوكة التي توضع على سبيل المجاز وفق طقس فارسي قديم (٦).

كما استمر طقس إشعال المشاعل الصغيرة في أفنية الدور في عيد النوروز، وتستمر مشتعلة إلى فجر اليوم التالي (٧).

وفي سياق آخر وبمجرد قرار الإسلام وتوطن قبائل العرب بما وراء النهر اختفت ظاهرة الزنا المشاع لدى قبائل الترك الرحل لعلهم بحزمة ذلك البتة، ولوجود الحدود الإسلامية المتناسقة مع الطبيعة البشرية التي تأنف من ذلك، وقد كان لامتهان المسلمين التجارة عبر أقاليم ما وراء النهر وصولا إلى الصين أثره الكبير في إعجاب السكان بأخلاق المسلمين وعاداتهم وبالعرب وأحوالهم، مما ساهم بشكل كبير في تخلق الأتراك بأخلاق العرب المسلمين التي تعتمد أساسا على أوامر ونواهي الشريعة الإسلامية.

ومن محاسن الإسلام في تلك المجتمعات هو ذلك التحول الجذري الذي حدث للأتراك نتيجة إسلامهم واختلاطهم بالعرب، حيث انتقل الأتراك من قبائل متناحرة إلى جزء من أمة ترنو إلى الحضارة والاستثفاف والتمدن، لأن الواقع الذي حدث هو ذلك الاقتتان العجيب بين انتشار الإسلام واللغة العربية، بحيث شكلت لغة العرب حيزا مهما في اهتمام الشعوب (٨)، مما جعل العديد من الطوائف الأعجمية تبرز في المجال العلمي في كنف الإسلام (٩)، وذلك

(١) - الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص ٣٧٩.

(٢) - النوروز: من أشهر أعياد الفرس وأصله (نو) أي جديد و (روز) بمعنى يوم: تيريزي، برهان قاطع، جلد چهارم، ص ٢١٨٧. وهو يوم رأس السنة عند الفرس: كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ١٦٢، وهو أول يوم من شهر (فرودين ماه) الذي يبدأ به العام الفارسي: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، نشر زوتنبرغ، باريس، د-ت، ص ١٣، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس: عبد الوهاب علوب، معجم الأمين للأثار والأديان، دار.

(٣) - المهرجان: أصلها (المهركان) بالكاف الفارسية ومعناها الحفل أو العيد: علوب، معجم الأديان، ص ٢٨٧. وهو عيد ابتدعه أحد الملوك الفرس وهو (أفرودين) عندما تم له النصر على الملك السابق (بيوراسف): أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٢٣٤.

(٤) - بديعي، أميزة أي أز أفسانة، ص ١٨٢.

(٥) - علوب، معجم الواعد، ص ٤١٦.

(٦) - ذكر الجاحظ أن الملك الفارسي (أفرودين) الذي ابتدع عيد المهرجان كان يضع الدراهم المسكوكة على مائدة عيد النوروز: الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٢٣٥.

(٧) - بديعي، أميزة أي أز أفسانة، ص ١٨٣.

(٨) - شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢٨٠.

لأن تلك الشعوب كانت تنوق إلى لغة تتسم بالرقى وسعة الجوانب وشمولية التعبير، تستطيع استيعاب أكبر قدر من العلوم والمعارف، وهذا ما تطابق تماما مع أمة الترك التي عانت من كثرة اللهجات وتعدد الألسن^(٢)، ولهذا أقبل الأتراك على تعلم لغة العرب وتلقفوها بشكل كبير للنهل من معارف وعلوم الإسلام التي كانت بلغة العرب^(٣)، وهذا من أظهر آثار العرب في الأتراك حين أصبحت اللغة العربية من أسمى أهداف طلاب العلم والحضارة لأنها الوسيلة التعبديّة والعلمية مما صدا بالأتراك لتعلمها بشكل واسع^(٤).

ورغم أن أساطين العلوم في الحضارة الإسلامية وفي شتى المجالات كانوا في الأغلب من أمم العجم إلا أنه لا مندوحة عن الإقرار بأن ذلك لم يكن ليتأتى لهم لولا تأديهم بلسان العرب.

ونتيجة الإسلام كذلك تلاشت أغلب مثالب الترك من المقامرة وأكل الميتة وما في حكمها من الموبقات، كما لم يعد التطير والتشاؤم بالنجوم والكواكب كسابق عهده، وتوقف المسلمون منهم عن شرب المسكرات، واختفت مظاهر الإيمان بمقدرة الجن على حسم المعارك وحفظ الأجنة وما إلى ذلك، وحل الدفن الإسلامي الصحيح محل الدفن السماوي، وقد ذكر المقدسي أن لهم رسما في الدفن كرسم المسلمين^(٥).

وفي جانب المراتب الاجتماعية اضمحلت صورة ملك الدهاقنة للأقنان بشكلها القائم المعتمد على الاسترقاق والسخرة، وساهم الإسلام في إطلاق ما لدى أولئك الرقيق من إبداعات معرفية وعقلية وثقافية وعسكرية.

ورغم عدم اختفاء الرق تماما إلا أن تعاليم الدين الحنيف كانت تدعو دائما إلى الحد من تلك الظاهرة بالعتق وإطلاق الحريات، ولعل أعجب ما في اثر الإسلام في أولئك الناس هو نقل وتحويل أحط طبقات المجتمع التركي درجة وهم الغلمان الرقيق والجواري إلى مرتبة لم تكن لتزد حتى في أكثر أمنيائهم جنوحا، ففي ظل دولة الإسلام أصبحت الجواري، معززات وصل بعضهن إلى أن أصبحن زوجات وأمهات خلفاء الدولة وأمرائها، وأصبح الغلمان المملوكون قادة وعلماء وأطباء وفلاسفة.

وهذا التغير الكبير تبعه بالضرورة تغير في المنهج والسلوك والعادات وطرائق الحياة، وذلك ما أحدث تغييرا جذريا في حياة الشعوب التركية من معيشة الترحال والبداءة والاقتتال والتخلف إلى طور الحضارة والتمدن والرقى في ظل دولة الإسلام

(١) - يقرر ابن خلدون في مقدمته أن "الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم" ابن خلدون، المقدمة ص ٥٤٣.

(٢) - أحمد، لقاء الأسلاف، ص ٨٣.

(٣) - عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٤.

(٤) - السيد عبد المؤمن السيد أكرم، أضواء على تاريخ توران (تركستان)، منشورات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، د-ت، ص ٢٣.

(٥) - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٢٧.